البعد الصوفي في الخطاب الجزائري.

(مصطفى الغماري نموذجا)

The Sufi dimension in the Algerian discourse

(Mustafa Al-Ghumari as a model)

عثمان عويسي*

الملخص:

عرف الأدب الجزائري قديما وحديثا حضورا قويّا للخطاب الصوفي من حيث معايشة التجربة الروحية المتولدة عنها رؤية دينية وفنية للكون والإنسان أو من حيث الافتتان بهذا الأدب الذي يجد فيه الشاعر المعاصر ضالته من خلال كثافة لغته الرامزة ،وبكل ما يكتنزه من حمولات دلالية فكرية ووجدانية، وفلسفية جمالية عبر منظومة معرفية تقوم على المغايرة والاختلاف .ومن هذا المنطلق جاء اختيارنا للشاعر مصطفى محمد الغماري للوقوف على نتاجه الشعري ذو البعد الصوفي الرامز، كونه واحدا من الشعراء الجزائريين الذين استلهموا الخطاب الصوفي وأبدعوا في توظيف مفاهيمه خدمة لما آمنوا به من مبادئ وقيم

الكلمات المفتاحية: الخطاب الجزائري الصوفية؛ الرمزية؛ الغماري.

Abstract:

Algerian literature, past and present, knew a strong presence of the Sufi discourse in terms of experiencing the spiritual experience that generated a religious and artistic vision of the universe and man, or in terms of fascination with this literature in which the contemporary poet finds his purpose through the intensity of his symbolic language, and with all the semantic, intellectual, sentimental, and aesthetic philosophical loads it possesses through a system. Knowledge based on heterogeneity and difference. From this standpoint, we chose the poet Mustafa Mohamed Al-Ghamari to stand on his poetic production with a symbolic Sufi dimension, being one of the Algerian poets who were inspired by the Sufi discourse and excelled in employing its concepts to serve the principles and values they believed in.

***Keywords**: Algerian discourse, Sufism, symbolism, Al-Ghamari.*

****

* جامعة ابن خلدون تيارت aouissiot693@gmail.com

مقدمة:

يعتبر التصوف جانبا من أخصّ جوانب الحياة الروحية في الإسلام، وهو تجربة و سلوك قبل أن يكون مذهبا و فكرا، ذلك أنّه تعميق لمعاني العقيدة، واستنباط لظواهر الشريعة، و تأمل لأحوال الإنسان في الدنيا،وتمرد في الوقت عن سلطان اللغة وخروج عن معيارتها،وقد تأثّر عدد غير قليل من شعراء الجزائر قديما وحديثا بالتجربة الصوفية والتي تقتضي حلولية روحية عميقة شاملة ،بحيث يتعرى الوجود من طينته وتضيء روحه كالسرج الداخلية ويشاهد الإنسان ما لا يشاهده ويسمع مالا يسمع ويشتم مالا يشتم بذوق باطني ،فالرمزي الكبير هو الصوفي الكبير بل أنه القديس الذي قام بمعجزة الا تصال بالغيب "[1] فتفتح أبواب موصدة في دنيا المحسوس ،ومن ثمّ شهدت دواوينهم حضورًا مكثفا و متنوعا ليرسموا مشهدًا شعريا متميزا، ويعبّروا عن التجربة الشعرية الجزائرية فأسمعوا صوتها للقارئ العربي فكان هناك نوع من التفاعل بين الشاعر وموضوع التجربة .

***مصطفى الغماري والتصوف:**

أولى الشاعر مصطفى الغماري عناية خاصة بالموروث الصوفي و هو بذلك إنّما يعبّر عن الروابط المتينة بين التجربتين الصوفية والشعرية من خلال استدعاء مفاهيم صوفية كالمقامات و الأحوال،والسكروالصحووالسفروالغربة وشخصيات متصوفة كالحلاج وا بن عربي.

شهد الرمز الصوفي في شعر مصطفى الغماري تحولا دلاليا من البشري الدنيوي إلى الروحاني الغيبي لا يمكن بلوغه إلا من خلال التأويل،و برع الشاعر "الغماري" في توظيف الرمز بمختلف أنواعه، وكان لثقافته الإسلامية أثرها البارز في اختياره للرموز الدينية، حيث استقى من التاريخ الإسلامي رموزه وشخصياته ناهيك عن ولوعه بالرموز الصوفية ذات الدلالة المشفرة الموغلة في الغموض خدمة لما آمن به من قيم تجاه ودينه ووطنه . ونحاول من خلال هذه المداخلة المحتشمة الوقوف على تجليات الرمز الصوفي ودلالته في الخطاب الغماري ،وهل استطاع توظيف الرمزالصوفي وفق ما يتماشى مع آمن به من مبادئ و قيم خدمة لقضيته ونشرا لرسالته النضالية ؟وكيف يتناغم الرفض على امتداد دواوينه مع الطرح الصوفي ليمسّ مختلف مجالات الحياة من خلال نتاجه الشعري عبر دواوينه الشعرية كأسرار الغربة، والذي يعدّ من الدواوين النادرة في الشعر الجزائري المعاصر التي تفردت بالرمز الصوفي وغيرها من الدواوين مثل : بوح في موسم الأسرار، حديث الشّمس والذاكرة ،مقاطع من ديوان الرفض ،قصائد مجاهدة ...

أرق الشاعر مدعاة الإبداع:

-إن علاقة الصورة الشعرية بمبعدها كعلاقة الأسلوب بصاحبه"حيث يكون هناك نوع من التفاعل بين الشاعر وموضوع التجربة ،فالشاعر يعيش موضوعه من الداخل ويندمج معه ويستغرق فيه ،ومن هذا تصطبغ صورته الشعرية باللون ذاته الباطنة"[2] ومن النماذج التي تدل على النفسية المتأزمة التي تحمل هما يؤرقها نقرأ في قصيدة الغماري:

لأجلك يا كروم الله..أهوى الشّوك
..أحترق
لأجلك تأكل الأسفار خطوي فالخطى
رهِق
لم أسأم ..
ولم يصلب على شششفتي الهوى الألق
وما انفكت هموم الأمس عني ..

ياأحبائي..
وكيف ترود قافيتي سواكم..؟[3]
الصورة هنا غنية بإيحاءاتها التي تعبر عن الألم الحاد كما يستشفه المتذوق من خلال : أهوى الشوك أحترق ،تأكل الأسفار خطوي ،لم أسأم ،لم يصلب،فكلها توحي بأحاسيس نفسية تؤرق نفس الشاعر ،لأنه عقد العزم على تفجير موقفه النضالي وإظهار كلمة الحق وأنه ثائر على كل انهزام ،ومن ثم كان لزاما على الشاعرالبحث مجالات أرحب وأوسع يبث فيه همومه ويعبرعن بما يختلج بذاته الأبية المقهورة ،ليجد في الرمز الصوفي ما يبحث عنه فيستلهم مضامنه ويسخر معانيه كالحب، والمرأة ،والخمر، الخ..

الرمز الصوفي :

إن الرمزية الصوفية هي حركة لغوية تتميز بالفرادة والجدة لغة تنطلق من الداخل من عمق التجربة الشعرية لا من خارجها ،مم يفتح إمكانية تعدد القراءة في هذه اللغة .إنها أفق مفتوح على المطلق واللا نهاية ،فالرمز الصوفي يعبر عن نزعة مثالية في الإنسان ،ووقف كلي من الكون والحياة ،أي أنه يعبر عن واقع الحلم"[1] وشعر الغماري منذ ديوانه الأول "أسرار الغربة"يفيض بالرمز الصوفي كما يتضح في بعض عناوين قصائده مثل :ثورة صوفية ونحوها فنجد هذا الرمز الصوفي له صلة بالتصوف العربي القديم.

ولعل ظهوره في شعر الغماري هو ذو دلالة أكيدة عل أمر مهم وهو المفارقة الفكرية والروحية والأخلاقية بينه وبين مجتمعه ،فالرمز الصوفي "يعد احتجاجا على مظالم الا ستعمار الاستيطاني لأرضنا الذي من نتائجه حرمان هذا الشعب من ثرواته وتراثه وهويته ،مما دفع الكثيرمن شعرائنا إلى رفع راية الانتماء إلى هذا التراث الإسلامي عاليا"[2]وعلى ضوء هذا المفهوم للنزعة الصوفية نرى أنها عالم فكري وروحي متكامل ينعكس في النتاج الفني للشعر ،ويظهر الاتجاه الصوفي جليا في عناوين قصائد الشاعر من مثل :ثورة الإيمان ،بين قيس وليلى ،مسافر في الشوق، ثورة صوفية،ونحوها .

يقول الغماري في قصيدة **ثورة صوفية**:

أحبائي
إذا صُلبت مشاوير الضحى منا فلا كنا..
إذا كانت هموم العشق تمطر في دمي جمرا
بماء الوصل محترقا
فيا رباه ..
أترع مُهجتي شوقا
وزد في مقلتي أرقا
لأفني في ليالي العشق دربا رافضا..[3]

فالشاعر يعلن هنا ثورته الجارفة لا ليناجي الأطياف والأحلام ،وإنما ليفي في لياليه دربه الر افض ،ورفض انتمائي يقف في صمود ومجابهة ،لذا نراه يفني عشقه المكبوت وحنينه المتقد الذي يشبه شوق الصوفي في نزعاته ووثباته ،ومن الرموز الصوفية عند الغماري توظيفه لكلمة "الهوى" التي تتكرر كثيرا في قصائده وهي من المفردات الصوفية كما جاء في قوله:

ألم هواكِ
يا قدر المسافة
يا شرايين الغد الآتي..
ألم هواك
وأصنع من دمي ..
من فيض آياتي
مواويل يطير بها جناحان
من الحب القديم
تهيم عينان
وأسكر والهوى العنقود والسّاقي !
ألملم خضر أشواقي !

وأدفن في صدرى الناعين دعوى العقم
يا بلدي ..
صعيقا في شفاه الريح مقبورا إلى الأبد [4]

فالذي يقول مثل هذا الكلام في لملمة الهوى والسكر إنما يقول بصريح لاصريح بعده أن صوفيته ثورة وجهاد وتمرد على قيم المجتمع وإدانته الحاضر العربي باسم العقيدة الإسلامية ويرى فيه ردة إلى الجاهلية بكل ايديولوجياته.

قيس وليلى

ومن رموزه الصوفية استعارته لاسمي قصة "قيس وليلى"كما في قوله:

قيس وليلى !
وليلى قصة معارة !
أسطورة تحزّبت
نمت على أهدابها مرارة !
ترفض باسم الفكر أن تمارس العهارة !
ترفض باسم الفكر أن تزيّف الحضارة ![5]

فذكر الشاعر لإسمي – قيس وليلى – يعد تلويحا صوفيا يرمز إلى معاني روحية تعبر عن ذوقه الخاص بلغة رمزية أبدعها برغبة منه،والجدير بالذكر أن الرمز الصوفي عند الشاعر لا يتوقف في موقع واحد من القصيدة وإنما قد تكون القصيدة بكاملها مبنية على الرمز كما جاء في قصيدة بين قيس وليلى وهي من الشعر العمودي ،وهذا ما يسمى بأسلوب القناع الذي يمثل شخصية تاريخية يستتر وراءها لعبّر عن موقفه .

رمزالخمرة :

ومن الرموز الصوفية التي كثيرا ما يوظفها الشاعر رمز الخمر ،والخمرة وضع متميز في تراث الصوفية الأدبي ،إذ كانت لديهم رمزا من رموز الوجد ،حيث تحولت الخمر إلى رمز عرفاني على ما كان المتصوفة ينازلون من وجد ،"وبدأ هذا التحول منذ القرن الثاني الهجري ،وقد كان الصوفية كثيرا ما يقرنون حالة الوجد الصوفي بحالة السكر والعربدة"[6]

ولعل النموذج الأتي يوضح ذلك في قول الشاعر:

ندمن الخمرة القبلية
والشهوة البربرية
والغضبة المضرية
لو يعلم المدمنون الشّرا ب السّراب
آه لويعلمون بأن رؤى الاقتراب اغتراب [7]

فالشاعر هنا يصف مظاهر الا نحلال المتمثل في الإدمان على شرب الخمر ،ومن ثم ذهاب العقل وممارسة كل أنواع الخبائث ،وهذا العالم الواقعي الذي يحياه الشاعر اختلت قيمه فدبّ الفساد ،لذا صرخ الشاعر بصوته للحد من اللجوء إلى الخمر والسكر وبهذا يكتسب الخمر دلالة تعطيل الواقع من خلال تعطيل الإدراك وتنشيط اللا وعي ،ومن ثم الا غتراب والهروب من الواقع.

رمز المرأة:

ومن الرموز الصوفية عند الشاعر رمز المرأة المتمثل في إعجاب الشعراء بعيونها، فكان رمز العينين في المرأة كثيرا ما عزف على وتره الشعراء منذ أن اكتشف سحره الشاعر العراقي "بدر شاكر السيّاب" في قصيدته المشهورة"أنشودة مطر"،فهو يعد ملمحا فنيّا هاما في تجارب الشعراء بحيث يتردد عندهم لا بصورته المادية المحسوسة ،ولكن يتحول إلى رمز له دلالات شتى كما في قول الغماري:

عيناك بريّ وبحريّ
وعيناك ذاكرة الموج..
ملحمة الرّمل
عيناك فاصلة ونبي
وعيناك حين ارتكاض الهجير فرات وريْ [8]

وهنا يحتمي الشاعر بعيون المرأة ،يسافر عبرأهدابها في المدى ،وفي احتفائه بهذين العينين يتحقق حلمه الواعد ويسمو عن الواقع ،فالبروالبحر وذاكرة الموج وملحمة الرمل إشارةإلى انبثاق "خضراء " من الصحراء وفتوحاتها عبر البحار والمحيطات "[9]

إذا فالشاعر يسقط رمز العينين وهو البعد الظاهري المرئي المتعلق بالأنوثة على البعد اللا مرئي وهي عقيدته السمحاء ،وهكذا يصبح رمز العينين اللتين أفرط الشاعر في وصفهما تأكيدا على رغبته في التوحد والذوبان معهما ،وبذلك يكون رمز" عيناك له دلا لتان هما:

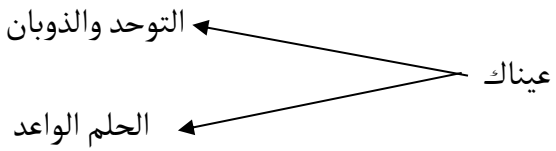

وعلى هذا الأساس كان رمز العينين وسيطا جماليا يصل إلى الجمال المطلق لأن المرأة في المنظور الصوفي تعتبر"رمزا للتعبير عن الحب في جانبه الإلهي بلغة العواطف بأساليب مأخوذة من شعر الغزل العفيف في رومانسيته المفرطة والصريح في حسيته وشهوانيته المباشرة"[10]

وعلى هذا النحو يحمّل الشاعر لفظة العينين دلالات عميقة تحيلنا على المعاني الروحية السامية،لذلك فالقارئ ملزم بتفكيك معاني الرموز لأن:"المتلقي الذي يمتلك ذائقة جمالية ومرجعية ثقافية واسعة تؤهله للدخول في عالم التناص ،فتصبح قراءته للنصوص إعادة كتابة عن طريق الفهم التأويلي لها"[11]

الخلاصة:

و هكذا فقد حاولنا سبر أغوار الخطاب الشعري الجزائري، فرصدنا مفاهيم بعض الرموز الصوفية ، ومدى تجليها في دواوين مصطفى الغماري التي تمظهرت فيها الإشارة لتهمين على العبارة وما ورد في مداخلتنا من رؤى ما هو إلا محاولة ترصدنا من خلالها بعضا من ملامح الصوفية في نتاج الغماري وكيفية توظيفها ولا ندّعي إلماما، بل نحسب أنّ ما توصلنا إليه من نتائج من شأنه أن يكون فاتحة تحفيزية للوقوف عند تجليات الخطاب الصوفي في النصوص الشعرية الجزائرية وكيفية بناء المقاطع و نمو الموضوعات نحو تحقيق أغراض تخاطبية معينة، تثيرمسائل جمالية و نفسية و اجتماعية وحضارية تعبّرعن انسجام النصوص مع السياق العام، و ربّما جاز لنا عدّها حلقة متصلة شكلا و مضمونًا في المسلسل الإبداعي.

- اتسمت صوره الشعرية بقدر كبيرمن الرمزية والجدة عبررؤيته الإسلامية وتطلعه إلى تغيير الواقع تجلت ملامحها في تجاوز الأساليب البلاغية المعهودة

- برع الشاعر "الغماري" في توظيف الرمز الصوفي بمختلف أنواعه، كالمرأة والخمرة ،والحب ، إضافة إلى الالفاظ الإيحائية المكتنز دلاليا الأمر الموحي موسيعية الشاعر الثقافية وبعد نظره.

- تعمّد الشاعر سلوك سبيل الرمز، الإشارة و التلميح ليحمل بين طيات خطابه الشعري ما لا حصر له من الدلالات الخاصة .

-الرفض سمة بارزة في شعرالغماري نتيجة الظروف التي تحيط به تدفعه في ذلك جملة من الأسباب أهمها العقيدة الإسلامية، النزعة الصوفية، ومشاعر الغربة، فينتشر الرفض على امتداد دواوينه، كما أنه يمسّ مختلف مجالات الحياة.

.لكن الرفض يصل أوجّه في العصر الحديث الذي عرف تناقضات عديدة نتيجة متغيرات حضارية وحروب لتظهر إلى العلن أصوات رافضة .والشاعر الجزائري "مصطفى محمد الغماري" إحدى هذه الأصوات التي اقتحمت مجال الإبداع الشعري منذ مطلع السبعينات

-كما وظف "التكرار" لأغراض فنية تعمّق الدّلالة، و"التدوير" الذي منح نصوصه موسيقى متميزة.

ورغم تمسك "الغماري" بالأصالة والتراث إلا أنه لم يستطع التنصل من السمات الحداثية التي ميزت طريقة تعبيره الشعري وأضفت أجواءها على مستويات: اللغة، والصورة والرمز والموسيقى. والحداثة في مدلولها اللغوي لا تخرج عن مفهوم التمرد وطرح الجدة بطرق وآليات جديدة تختلف عن السائد والمألوف، وافتتاح آفاق تجريبية جديدة .

قائمة الهوامش والمراجع:

1. إليا الحاوي ، الرمزية والسريالية في الشعر الغربي والعربي ،دار الثقافة بيروت لبنان، 1983، ط2، ص:109-110.
2. شفيع السيد ،التعبير البياني رؤية بلاغية نقدية، دار الفكر العربي، 1415هـ-1995، ط1982، 4، ص:118.
3. مصطفى الغماري أسرار الغربة ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر، ط1982، 2، ص:118.
4. عثمان حشلاف ،الرمز والدلالة في الشعر العربي المعاصر ،فترة الاستقلال ،منشورات التبيين الجاحظية ،سلسلة الدراسات ،الجزائر ،2000، ط1، ص:45.
5. المرجع نفسه ص :45
6. مصطفى محمد الغماري ،أسرار الغربة ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر ،ط1982، 2، ص:100.
7. مصطفى الغماري، بوح في موسم الأسرار، مطبعة لافوميك، الجزائر، 1985، ص 58-59.
8. مصطفى الغماري ،مقاطع من ديوان الرفض، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص: 29-30.
9. عبد الحميد هيمة، التيارات الأسلوبية في الشعر الجزائري المعاصر ،شعر الشباب نموذجا، مطبعة هومة، ط1998، 1، ص:88-89.
10. مصطفى الغماري ،حديث الشمس والذاكرة ،المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر 1986، ص:79.
11. مصطفى الغماري ،حديث الشمس والذاكرة ،المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر1986، ،ص:65.
12. حسن فتح الباب ،شعر الشباب في الجزائر بين الواقع والآفاق ،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1987، ص:219.
13. عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية ،المكتب المصري لتوزيع المطبوعات ،القاهرة، 1998، ص:255.
14. جمال مبارك، التناص وجماليته في الشعر الجزائري المعاصر، اصدرات رابطة الإبداع الثقافية ،الجزائر ،ط1، مطبعة دار هومة، 2003، ص:152.